المحاضرة التاسعة

العلاقة بين الرواية والايديولوجيا

الأدب مادة مؤدلجة بحكم الضرورة ،فالكاتب عادة ما يعبر عن مجتمعه و قيمه و انتمائه و يدافع عن أفكاره و يقدم توجهاته ،و الرواية تمثل النموذج الأمثل لتقديم الايديولوجيا.

الأديب يكشف عن ايديولوجيته في مؤلفاته ،نجد (البير كامو) مثلا في رواية (الغريب) يكشف عن فلسفته و رؤيته الخاصة للحياة و الكون ويقدّم طروحاته المتعلقة بالمذهب العبثي.

و نستطيع التأكيد على أن كل الابداعات تخفي توجهات ايديولوجية و لكن العلاقة بين الابداع والايديولوجيا تتسم بالقرب تارة و بالبعد تارة أخرى و نلاحظ أنهما لا يمكن أبدا أن يتطابقا لأن الرواية تعبير ابداعي عن فكر الانسان بأساليب جمالية ....

و الأدب الروائي العربي لصيق بالايديولوجيا بصفة عامة لانحسار هامش الحرية فيجد في الرواية مجالا لمناقشة الصراعات الفكرية و التيارات السياسية بحيث نجد بعض الكتابات تنوء بالأدلجة و البحث عن الحرية التي طغت على كل المواضيع.

و لكن بصفة عامة لا يمكن للرواية أن تتجرد من الايديولوجيا و كلما كانت المسافة بين الابداع و الاديولوجيا بعيدة كلما حافظ الفن الروائي على قيمته الفنية والرمزية.

و من مميّزات الأدب أنه تعبير فرداني وهذا يربط بين الانتاج التخييلي و الفرد لا الجماعة. و اذا كان الأمر كذلك فكيف يعبّر الأدب عن الايديولوجيا الموصوفة بكونها وعيا يتصل بما هو جماعي ؟

هذا الاشكال يصبح أكثر قوّة اذا ما طرح على مستوى الرواية التي تعبر عن الشرخ العميق الذي جرى بين الفرد و المجتمع لا الجماعة بعينها.

و لذا نجد أن العلاقة بين الرواية و الايديولوجيا تتصف بطابع اشكالي يتخذ صبغة عويصة ،و لكن من السائد الذي ينزل منزلة اليقين ،أن الأدب لا يخلو برمته من أن يعبّر عن توجهات ايديولوجية معيّنة ، وهذا وفق تصوّر (جورج لوكاتش) الذي يعدّ كل أفعال البشر مندرجة في الايديولوجيا.

و لكن هنا نتساءل ،اذا كانت الايديولوجيا علم الأفكار، فهل هي الأفكار المسبقة الجاهزة ؟ و اذا كانت كذلك فكيف تتقاطع مع الأدب و مع الرواية تحديدا ؟ خاصة و أن الأدب في عمقه التمرّد على القوالب الجاهزة و البحث عن الجديد و المتفرّد و المختلف ؟

اذا كانت الايديولوجيا في اليقين و الايمان بفكرة ما ،فانّ الأدب و الابداع هو اللا يقين ،فمتى وصل الأدب و الرواية الى اليقين الخالص و الاجابة الجاهزة ؟ و تخلّى عن الشك و الأسئلة ،ان حدث ذلك فهذا يعني أنه فقد سحره و جمالياته .

ان كثيرا من المبدعين و القرّاء ايضا أصحاب مواقف ايديولوجية تجاه كثير من القضايا اليومية و السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية ،و هذا طبيعي بل مهم و لكن يجب الاّ تكون مواقفه محكومة بايديولوجية ثابتة و جامدة حيت تجب مراجعتها لأن التغيير سنّة كونيّة.

ان أكثر ما يضعف النص الروائي و يفسده تدخّل الايديولوجيا الصارمة بشكل مباشر وهذا ما يجب ان يدركه المبدع اذ لا يجب أن يتحوّل نصه الروائي - وهو عمل أدبي خالص و حرّ - الى خطاب أو بيان ايديولوجي مباشر. و قد نجح عدد من الروائيين في التخلّص من رؤيتهم المسبقة و تدخّل ايديولوجيتهم الخاصة في عملهم الفنّي ،حيث نجد مثلا الكاتب العالمي الروائي البرتغالي (جوزيه ساراماغو) الذي انتمى الى الحزب الشيوعي البرتغالي حتى وفاته لم يكن في ابداعه منفذا لشروط و قوانين الحزب الشيوعي و لم تكن رواياته تعكس رؤية الحزب و تعليماته ،بل كان يكتب برؤية فلسفية مختلفة يفاجيء بها القارء في كل مرة و يتحوّل و هو يكتب الرواية الى كاتب يمتلك مخيّلة رائعة و رؤية فنية متميزة توحي بموقفه الفكري دون ابتذال مباشر و هذا هو الفصل بين ايديولوجية الكاتب و نصوصه الروائية الابداعية .

و كذلك تجربة الكاتب (ماريو بارغاس يوسا) الروائي و السياسي المعروف الذي انتهج مبدأ ما للسياسة للسياسة و ما للأدب للأدب حيث يوحي بطريقة فنية بموقفه الفكري ..... و هناك الكثير من المبدعين الذين التزموا بنفس المبدأ ،وهذا يثبت كيف يمكن أن تتحرّر الرواية من سطوة الايديولوجيا المباشرة و تشي برؤية الكاتب الفكرية و الايديولوجية دون أن تطغى هذه الأخيرة على روح الابداع.

و نلاحظ على مستوى الرواية العربية أن بعض الروائيين العرب كانوا يعبرون مباشرة عن ادبولوجيتهم فتتحوّل جميع عناصر الرواية و مكوّناتها لصالح الايديولوجيا التي يؤمن بها المبدع و يبشّر بها النص الروائي الذي يخدم الايديولوجيا و يضعف امام اغراءاتها فيتحوّل الأدب الى أدب شعاراتي و هو ما يجب على الروائي الحذر منه. لأنّ الكتابة برؤية عميقة تتطلب ايصال الفكر في النص بشكل فني و ذكي دون السقوط في فخ الايديولوجيا الصارمة التي تكرّس النص للخطاب الايديولوجي السياسي الباهت حيث يتدخل الروائي من خلال شخصياته و مواقفهم الى درجة الباسهم معاطف ايديولوجية ثقيلة.

.

على الروائي اذن أن يتخلص من الفكرة الجاهزة و المسبقة و يجعل نصه نصا انسانيا مكتملا ببنائه الفني و الجمالي بما يضمن بقاءه و قابلية قراءته على مستويات و طبقات متعددة و على مدى عقود زمنية عديدة ،و لكن هذا لا يعني أن الأدب عمل فارغ هلامي لا يحمل مضمونا أو رسالة أو هّما ،بل يقدم مواقفه و رؤاه و فكره وهو يستلهم الفني و الجمالي و يوظفهما لخدمة الابداع .

هدف المحاضرة العام :

تحديد علاقة الأدب بالايديولوجيا

خصائص العلاقة بين الرواية و الايديولوجيا

المراجع :

الأدب و الايديولوجيا عمار بلحسن

الايديولوجيا وبنية الخطاب الروائي عمر عيلان

النقد الروائي واليديولوجيا من سوسيولوجيا النص الروائي الى سوسيولوجيا النص حميد لحميداني

انشطة التقويم :

اسئلة حول عناصر المحاضرة

مقال يوضح فيه الطالب طبيعة العلاقة بين الرواية و الايديولوجيا